حياة مجيـــدة

للسيدة وداد سكاكيني

أصدق آثار الأديب مذكراته ، والذكريات ذخيرة الفكر والسنين ، وصدى الحوادث والشؤون، فأحب إلى ذوى الأقلام الحرة من اختزان الذكرات وتسجيلها ، ففيها يودعون صوراً تعبر عن حياتهم الخاصة أو العامة ، وفيها يعربون عن تهاويل ماضيهم وهمومهم ، وما اتصل بجيلهم وقبيلهم من خير أو شر ، فإذا هى بعد ترتيبها ونشرها تهتز وتنبعث فتعود جديدة شائقة كما كانت حوادثها وبواعثها قبل أن تغيب بين سمع الأرض وبصرها . ولعل أول ما يدون أصحاب هذا الضرب من الأدب هو ذكرياتهم. وسيرة حياتهم ، إذ يكتبونها من أجل أنفسهم قبل غيرهم ، ورب كراسة قيدوا فيها هواجسهم وحوادثهم ، فور انبثاقها أو فى فترات منقطعة متتابعة كانت كل صفحة من صفحاتها صورة كاملة لأيامهم الحافلة وشؤونها المختلفة، فاستوفوا حاجتهم وإلمامهم قبل الفوات ، وكانوا أمناء فى تسجيل الأحداث والتجاريب وتمليل الأمور التى تجلو الحقائق وتتصل بالتاريخ

وثمة ضرب آخر من الذكرات يعمد أصحابها إلى استعادتها وكتابتها بعد أن تغيب أشباحها ، وتضيع آثارها وأخبارها ، فإذا عن لهم تصويرها ونشرها أخذوا يرتدون إلى الماضى وربما كان بعيداً شريدا ، فيخلعون أردية السنين حتى يبلغوا أيامهم الخالية فيبعثوا الذكريات من مرقدها . ومهما عاجوا ما فاتهم منها فلن يعود ثائراً ناضراً ، لأن اهتزازة الحياة وحرارة الحوادث قد فارقته بسبب النسيان والإهمال أو غياب الشعور ، فيفقد القديم المستعاد الصحة والرونق ويكون له طعم الغذاء المحفوظ فى علبة من حديد

فمن الضرب الأول كتاب « حياتى » للدكتور أحمد أمين بك . وقد كان هذا الكتاب درة التأليف العربى فى أدب هذا العام ، إن قارئه ليشعر منذ الصفحة الأولى أنه بين يدى كاتب صريح ، بعيد عن التكلف والتمويه ، فلا التباس ولا تنميق ولا تبجح أو تمجد ، فإذا ذكر عوامل تكوينه وأثرها فى حياته وثقافته ، وألا عيب القدر التى صرفت فى هذه الحياة حظ صاحبها رأينا مثالا إنسانيا عظيما لطلاب المعرفة والصابرين على الصعاب حتى يدركوا بكفايتهم وكرامتهم المجد المنشود ، وكأن المؤلف حين يجلى حياته ويكشف عن دخيلتها ومزاجها منذ تفتحها حتى نضجها ، وما تخللها من أطوار عجيبة وفروق متضاربة يستعرض رواية حاشدة لغرائب الأحداث

لقد قرأت فيما مضى مذكرات لجبار الأدب الغربى « آندريه جيد » فأخذت بما فيها من قول صراح ولم يسلم فنه على روعته من تبرمى ولومي ، إذ كان الكاتب المبدع يجور فى ذلك القول حتى على نفسه فرأيته من غلاة المصارحين ، والغلو فى كل أمر ثقيل ممقوت . ومن قبل قرأت اعترافات الشاعر الفريد دوموسيه ففيها قص علينا كيف تردى فى حمأة الهوى وتصدى لداء العصر الذى استحكم فى أبناء جيله بعد أن اجتاحت الغرب أعاصير الحرب ، فراح « موسيه » يصف ذلك الداء العياء ويعترف بذنبه ومصابه ، مصوراً بدم قلبه عبراً لابد أن يجد فيها كل فتى صورة لحادثة من حوادث حياته . غير أن « جان جاك روسو » كان أصدق رواية وأحسن تأويلاً فى اعترافاته ، حتى قال ما معناه : لقد كشفت لك يا إلهى عن طويتى كما رأيتها ، فلو اجتمع أمثالى وسمعوا اعترافى وكشفوا عن قلوبهم بمثل إخلاصى لما تجاسر أحدهم أن يقول : لقد كنت أحسن من هذا الرجل ...

أما كتاب « حياتى » الذى هو قصة حياة إنسان جاء إلى الدنيا ليفيد الناس ويعلمهم الأدب والأخلاق فلم يكن من قبيل الاعترافات لا من طبقة المذكرات لأنه أجل منهما وأجل ، هو سيرة « أحمد أمين » بقلمه الحر وفنه الأصيل وصدقه المعهود . ولقد تحرج أستاذنا الكبير بادى الرأى من نشر هذا الكتاب ، لأنه كان يرى نفسه فيه بمنزلة العارض والمعروض والواصف من حديد

والموصوف فتمنى أن يرى نفسه مرآة غيره محكوماً عليه لا حاكماً ومشهوداً عليه لا شاهداً ، فإن تواضعه — والتواضع أجل صفات العلماء — جعله يرى نفسه غير جدير بتسجيل حياته إذ لم يرها عظمة ولا زعامة ولا بطولة ، فهو ليس بسياسي كبير أو مغامر خطير ، لكنه وجد وسيلة لتبرير صنعه في نشر الكتاب ، وهي أن عصر الديمقراطية قد كاد يغرب وتعم العالم في الشرق والغرب فكرة ديمقراطية ، وعلى كل امرئ يؤثر الحرية والخير لقومه أن يسعى إلى نفعهم ، وقد وجد الدكتور أحمد أمين أن في وسعه نفع أمته بنشر كتابه لأنه يصور جانباً من جوانب جيله ويصف نمطاً من أنماط الحياة في عصره ووطنه ، ولعله يفيد اليوم قارئاً ويفيد غداً مؤرخا

كانت فاتحة كلامه على حياته فلسفية صوفية ، والفلسفة كهف للمفكرين أمثاله ، إذ كان يرى أن وجوده نتيجة محتومة لكل ما مر عليه وعلى أهليه من أحداث ، ثم جعل يتغلغل في مظاهر هذا الوجود وبواطنه ، حتى صار همه الرأي إلى أن يجد نفسه عالماً وحده ، خاضعاً لعوامل التأثر النفسي والوراثي والرؤية العينية والمناهج العقلية والعلمية

ويدفعنا المؤلف برفق وهوادة إلى مشاهدة البلدة التي نشأت فيها أسرته المصرية ؛ فيصور الفلاح الكادح الذي كان يعاني المنت والاستغلال حتى أصاب أهل المؤلف لظى ذلك الجور فنزحوا إلى القاهرة وكان أبوه عالماً فقيها فأحب أن ينشئه نشأته . وحين صور الأستاذ أحمد أمين أثر المدرسة التي طبعته بطوابعها وجد البيت هو المدرسة الأولى التي تعلم فيها أهم دروسه في الحياة

ما أروع حادثة مولده ورضاعه ! إنه ليصورها محفوفة بضربة قاصمة من ضربات القدور . فقد اتفق أن نهضت أخت له في مستهل العمر لكي تعد القهوة لبعض الضيوف وكانت أمه حاملاً به ، غير أن النار هبت في أخته فما استطاعت أن تطفئها ، ولم يدركها أهلها إلا وهي شعلة من نار ، فتغذى وهو جنين دما حزينا ورضع لبناً حزينا ، ويرد هذا السبب وأمثاله إلى طبيعته ومزاجه ، فيتساءل : هل كان لذلك أثر فيما غلب عليه من الحزن في حياته ؟

ولقد أحسست منه ذلك فيما فاضت خواطره ، وفيما كنت أنصت له من حديثه ، فأسمع فيه هدوء المحزونين ، وأحس في سمته وفي نبرات صوته ولهجته شجواً حيرني تعليله حتى قرأت كتابه « حياتي »

ويتدرج المؤلف في مذكراته من بيته إلى المدرسة الثانية التي كانت حارته وجيرته ، ثم يتهادى إلى « الكتاب » مصوراً لنا « كتابه » وشيخه و « الفلقة » المعلقة على الحائط وعصا الشيخ الذي يقولون له بمصر « سيدنا » وحين وصف لوحه تذكرت الجاحظ الذي صور لنا الشيخ في كتاب زمانه ، والتلميذ وهو يمحو لوحه فقلت : إن مياسم الشرق واحدة في القديم والحديث وقد أثارت هذه الذكرى في خاطري صوراً رائعة للدكتور « طه حسين » ذكرها في « أيامه » ما كان أجملها وهو يقرأ القرآن بين يدي شيخه القاسي الوقور

إن كثيراً من الناس لا يعرفون أن الدكتور أحمد أمين بك نشأ بهامة وجبة كنشأة أترابه وصحبه من أعلام الفكر والبيان بمصر ، وأنه تلقى ثقافته الأولى أزهرية مكينة تعهدها أبوه بالتوجيه والتسديد قبل أن يتلقى ثقافة القضاء والأدب ، ويصير إلى الجامعة المصرية أستاذاً وعميداً ورائداً للباحثين والمؤلفين .

وكان لموت أبيه ومعلمه أثر عميق في نفسه اقتحم بعدها غمار الحياة وتحمل تكاليفها بعزم وإيمان ، حتى إذا انتهى من قصة دراسته ووظيفته في القضاء ثم بجامعة فؤاد قص علينا بإيجاز رحلاته إلى الشرق والغرب حتى أخذ بنا إلى صفحات سعادته بين أهله ، وحين منحته الجامعة الدكتوراه الفخرية وجائزة فؤاد الأول تقديراً لفضله وآثاره ، وتكريما لمجهوده السباق إلى البحث العلمي المعاصر في تاريخ الأدب العربي وتوجيه الأمة الوجهة الأخلاقية المثلى

فكتاب « حياتي » الذي خطه مؤلفه الجليل بأسلوبه الخاص سيشع منه على الأيام القابلة ، والجيل العربي الصاعد مشعل الحق والخير يضيء الفكر والضمير ، وينهج السيرة والتاريخ

دمشق

وداد سكاكيني

خواطر بدر ...

للأستاذ محمد عثمان محمد

مما لا يوافى الكثيرين من الأدباء القدرة الفائقة على التلوين والتنويع فى أدبهم مع الحبك والسبك والإجادة ... فقد يكون الكاتب فى النثر بارعاً ، وقد يكون فى الشعر مفلقاً ، وقد يكون فى القصص عبقريا ، وقد يكون فى الأدب الشعبى راسخاً ... أما أن يكون فى مستوى واحد من البراعة والإجادة فى جميع فنون الكتابة فأمر لا أظن أنه يتأتى للأكثرين ...

أقول هذا وبين يدى كتاب جـــديد صدر أخيراً باسم « خواطر بدر » ، أهداه إلى مؤلفه الأستاذ الفاضل أحمد عبد اللطيف بدر ، المدرس بپورسعيد الأميرية الثانوية ... فقد حوى فى تضاعيفه الشذرة الاجتماعية ، والمقالة الأدبية ، والقصة فى عالميها الواقعى والخيالى ، والشعر الفنى فى أغراضه ، والزجل الشعبى فى استرساله ... مما دل على قدرة الأستاذ على التلوين والتنويع فى أدبه بصورة غير مألوفة ...

وقد يدهش القارئ الفاضل أن يكون عالم من خريجى إحدى كليات الأزهر الشريف زجالا ... ولكن ليس فى هذا ما يدعو إلى الدهش والاستغراب ... فالزجل فن شعبى له منهجه وأصوله ، وليس كما يفهم البعض « ... كلمات مسرفة فى العامية أو عبارات تنظم حينما اتفق ... » ، وليس فى مزاولته أو محاولة نظمه ما يحط من قدر العالم المصلح والكاتب الاجتماعى ... لأننا إذا دعونا إلى الإصلاح مثلا — ومخاطبة الدهماء من طبيعة عمل العالم الذى يهدف إلى الإصلاح والكاتب الاجتماعى الذى يرمى إلى التهذيب والإرشاد — كانت دعوتنا ، كما يقول الأستاذ المؤلف ، ذات فائدة إذا كانت لها صلة بروح الشعب المنتفع بها ، ولا تتأتى هذه الصلة الروحية إلا إذا خاطبنا الشعب بلغته الدارجة التى يفهمها ، والزجل مظهر من مظاهر هذه اللغة ...

وقد يظن البعض أن الزجل فن شعبى مستحدث ، ولكنه فن قديم مضت عليه أكثر من ثمانمائة وعشرين سنة ، فقد ابتدعه فى الأندلس من يقال له « راشد » ، ثم جوده وحسنه وأكثر من أوزانه من بعده أندلسى آخر يقال له « ابن قزمان » وقد توفى عام ٥٥٥ هـ ...

واللاحظ على أزجال الأستاذ أحمد أنها كلها أدبية أخلاقية اجتماعية ، لا تجد خلالها قصيدة واحدة فى الهجاء أو الذم تتخللها ألفاظ نابية ...

وإذا تركنا الزجل وانتقلنا إلى الشعر ... أو انتقلنا من النظم باللغة الدارجة إلى النظم بالفصحى ، وجدنا الأستاذ الشاعر مقلا ... تتفاوت مقطوعاته ما بين عشرة أبيات وأربعة ، اللهم إلا فى قصيدة واحدة هى « فجر النهوض » ، فقد أربت على ستة وعشرين بيتاً . . ! ! وهو يقول فى تعليل ذلك : « ... وشعرى قطعة من نفسى أصوغه حينما أشعر برغبتى فى تنغيم مشاعرى على النغم الموسيقى الذى يبعثه اللحن الصادق المتجاوب بين أعطاف وجدانى لذلك كنت مقلا ... » ، يريد أن يقول إنه لا يقول الشعر إلا إذا أحس فى أعماقه برغبة قوية صادقة تدفعه دفعاً إلى التنغيم والإنشاد ... ، وهذا حسن ... ويجب أن يكون منهاجاً وسبيلا يطرقه كل شاعر يريد أن يسمو بشعره وأن يخلد بنات أفكاره ... ولكنه لا يمكن أن ينهض سبباً قويا على التقصير وعدم الاسترسال فى القصيد ... وإن كان يمكن التعلل به على قلة النتاج الفكرى ...

فإذا كان الذهن حاضراً ، والقريحة صافية ، والشعور صادقا ، وتلك الرغبة العميقة الدافعة إلى النظم والإرشاد مواتية ... ما الذى يمنع الشاعر من الاسترسال والإطالة — غير الملة — ما دام لم يستوف الغرض ، وما دام الموضوع يتطلب منه الطول والجول . . ؟ ! !

على أنه ليس معنى ذلك أننى أقول « بالكم » فى مجال التفوق والشاعرية . . فقد « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق » كما قال عقيل بن علفة حين سأله سائل وقال : مالك لا تطيل الهجاء ؟ !

هذا ، والأستاذ بدر ، صاحب هذه الخواطر ، هو صاحب مجموعة « قصص بدر للأطفال » ، فهو من تلك الفئة العاملة من رجال التربية والتعليم ، المعنية عناية خاصة بتربية الناشئة